خواطر في العراق

(تابع لما قبلهُ)

٦ الحلَّة

اتفق مؤرخو العرب مثل ابن الاثير والطبري وياقوت الحموي وغيرهم وجاراهم البستاني في دائرة المعارف على ان اول من عمَّر حلة بني مزيد سيف الدولة ابن دبيس بن علي بن مزيد الاسدي في سنة ٤٩٥ هجرية اي نحو مستهل القرن الثاني عشر للمسيح في اجمة اسمها « الجامعين » كانت تأوي اليها السباع . وقد نقل ابو الفداء هذا الرأي عن ابن الاثير وارتاب في صحتهِ . ونحن نخالفهم في هذا الرأي لان الحلة من المدن العريقة في القدم يرتقي تاريخ تأسيسها الى ايام البابليين . ولفظة الحلة بابلية الاصل . ومن المحتمل ان سيف الدولة انشأ في الحلة المساكن الجليلة والدور الفاخرة فنسب تأسيس المدينة اليهِ . وامثال ذلك كثير في مؤلفات العرب اذ ينسبون تأسيس مدينة الى من شاد فيها بعض الابنية او رممها بعد خرابها او كان من مشاهيرها

وقد زار الحلة ابن جبير في الربع الاخير من القرن السادس للهجرة وقال انها مدينة كبيرة مستطيلة لم يبقَ من سورها الاَّ حلق من جدار ترابي مستدير ولها اسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية وهي قوية العمارة كثيرة الخلق متصلة حدائق النخيل داخلاً وخارجاً . وزاد على هذا الوصف ابن بطوطة في رحلتهِ وقال « واهل هذه المدينة كلها امامية اثنا عشرية وهم طائفتان احداهما تعرف بالاكراد والاخرى تعرف باهل الجامعين . والفتنة بينهم متصلة ... وبمقربة من السوق الاعظم بهذه المدينة مسجد على بابهِ ستر حرير مسدول وهم يسمونهُ مشهد صاحب الزمان ومن عادتهم انهُ يخرج في كل ليلة مائة رجل من اهل المدينة عليهم السلاح وبايديهم السيوف مشهورة فيأتون امير المدينة بعد صلاة العصر فيأخذون منهُ فرساً مسرجاً ملجماً او بغلة كذلك ويضربون الطبول والانفار والبوقات امام تلك الدابة ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون

باسم الله يا صاحب الزمان باسم الله اخرج قد ظهر الفساد وكثر الظلم هذا اوان خروجك فيفرق الله بك بين الحق والباطل .ولا يزالون كذلك وهم يضربون الابواق والاطبال والانفار الى صلاة المغرب وهيئة ولون ان محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه وانهُ سيخرج وهو الامام المنتظر عندهم » (١)

وقد ازهرت هذه المدينة آونة ووقعت فيها الاحداث العظيمة السياسية واتسعت تجارتها واخضلّت زراعتها واينعت علومها فخرج منها علماء فطاحل وشعراء مجيدون منهم صفي الدين الحلي ، وكانت النصرانية زاهية فيها في القرن الثالث عشر والرابع عشر وكان للنساطرة فيها معابد وفي ضواحيها اديرة . ولمّا هبطناها لم نرَ من ذلك كلهِ شيئاً بل رأيناها بلدة صغيرة مقر قائم مقام وفيها نحو ٨٠٠٠ نسمة اغلبهم مسلمون وبينهم قليل من اليهود .وقد اعترى اهاليها الخمول واشجارها الذبول ومالت ابنيتها الى الخراب وخربها معظم سكانها فكسدت تجارتها وماتت صناعتها . وكان سبب هذا الانحطاط قلة المياه وانصراف الفرات عنها حتى ان في ابان الفيظ كان ينضب ماؤهُ فيضطر الاهلون الى حفر الآبار في عقيقهِ لشربهم . ولما رآنا القوم قادمين من مقر اعمال السدّ حسبونا مهندسين فتألبوا حولنا يطارحوننا الاسئلة عن سير الاعمال فكنا نجيبهم بما نحي به بيت آمالهم وقد تحقق اليوم قالنا اذ كمل السد ورجعت الامور الى مجاريها

ورأينا مدة اقامتنا في الحلة دار الحكومة ومقر القيادة العسكرية وادارة البريد والبرق وادارة حصر التبغ وادارة الديون العمومية . وليس في البلدة من الآثار الظاهرة ما يستوقف الابصار الا البرج الذي يشاهد في ظاهرها ويسمّى مشهد عين التمر . والمتعينين احدوثة توفي هذا الاثر القديم الى عليّ بن ابي طالب

بتنا ليلتنا في خانٍ واسع ولمّا تنفس الصباح رجعنا الى سدّ الهندية وفي اليوم التالي قصدنا المسيب على الدواب ومنها ركبنا عجلةً ووجهتنا كربلاء

(١) هذه رواية ابن بطوطة الا ان الشيعيين اليوم يقولون ان محمد المهدي بن الحسن العسكري غاب في سرداب في سامرا فيطوفون حول ذلك المشهد منتظرين صاحب الزمان ويتوسلون اليه ليظهر بين الناس

٧ ذكر كربلاء

قبل ان نلقي رحالنا في هذه المدينة ساعتين شاهدنا في وسط البرية قبة مزينة بالقاشاني تسقف مزاراً يقال انهُ مرقد الامام عون بن عبد الله بن جعفر الطيار. وواصلنا سيرنا فتراءت لنا كربلاء ورأينا بين عذب النخيل مآذنها المذهبة وقبابها الفخمة المزينة بالقاشاني وبراج ساعاتها الشاهقات فعلمنا اننا على مقربة من مدينة من امهات مدن العراق. وليؤذن لنا القراء ان نورد هنا واقعتها العظيمة في تاريخ الاسلام

يذهب الاثريون المبرّزون ان كربلاء قديمة العهد وكان البابليون قد اقاموا فيها هيكلاً لآلهتهم ودعوها حرب ايل اي محراب الاله. ولما كانت سنة ٦٠ هجرية تولى الخلافة يزيد بن معاوية وارسل الى عامله بالمدينة بالزام الحسين وعبدالله بن الزبير وابن عمر بالبيعة فامتنعوا ومضى الحسين الى مكة وشرعت الرسالات ترد عليهِ من اهل الكوفة يحثونهُ على المسير اليهم ليبايعوهُ فبعث اليهم ابن عمهِ مسلم ابن عقيل بن ابي طالب فبايعهُ قوم منهُ يناهز عددهم ثلاثين الفاً. وكان العامل عليها يومئذٍ النعمان بن بشير الانصاري فعزلهُ الخليفة يزيد وولى على الكوفة عبيد الله بن زياد. وما زال هذا العامل دائباً في مقاومة الحسين ومندوبهِ مسلم بن عقيل واصحابهِ حتى قبض على مسلم وردّاه وضرب عنق هانيء بن عروة وكان هذا من اخذ البيعة للحسين وبعد استتار مسلم بن عقيل[1] ثم توجه الحسين الى العراق باصحابهِ فلاقاهم الحرّ صاحب شرطة عبيد الله بن زياد بالفي فارس بزبالة فاخذهم الى كربلاء ومنعهم الماء وذلك في الثاني من محرم سنة ٦١ هـ ولما كان الغد قدم من الكوفة عمر بن سعد ابن ابي وقاص في اربعة آلاف فارس ومعهُ شمر بن جوشن وتبادلت المراسلات بين الفريقين حتى كان يوم عاشوراء حمل عمر على الحسين فاصاب الحسين سهم فنادى شمر بالقوم فجهزوا عليهِ وقتلوا

(١) لكل من مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة مرقد في جوار الكوفة وقد قال الفرزدق في مقتلهما:

وان كنت لا تدرين ما الموت فانظري الى هانيء في السوق وابن عقيل
الى بطل قد هشم السيف وجهه وآخر يرمي من ظمر قتيل

رأسهُ وحملوه هو والنساء الى يزيد بن معاوية بدمشق ثم رُدّ نساؤهُ والاطفال الى المدينة ولما وصلوا اليها لقيهم نساء بني هاشم حاسرات وفيهن ابنة عقيل بن ابي طالب وهي تبكي وتقول :

ماذا تقولون ان قال النبي لكم ماذا فعلتم وانتم آخر الأمم
بعترتي وباهلي بعد منتقدي منهم اساري وصرعى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي اذ نصحت لكم ان تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

هذه هي النكبة المفجعة التي نزلت باهل البيت في سهل كربلاء فيردد صدى ألمها خمسون مليون شيعي مبثوثون في العراق والعجم والهند وكره قاف وجبل عامل وغيرها من بلاد الله . وهذه هي المأساة التاريخية التي يمثلون ادوارها في كل عاشوراء ويشخصون وقائعها بقلوب دامية وعيون دامعة فيذكرون كربلاء مصرع شهدائهم فان فيها مدافن الامام حسين والعبّاس ابي الفضل وجماعة من اصحابها فيأمّ اهل التقى تلك المشاهد من مشارق الارض ومغاربها ويزورونها اقتداء بجابر بن عبد الله الانصاري الذي زار قبر الحسين بعد اربعين يوماً من مقتله . ويطوفون يوم عاشوراء في شوارع كربلاء وساجدها ممثلين ادوار تلك النكبة ويشترك معهم الالوف من القوم فيلطمون الخدود ويقرعون الصدور ويضربون انفسهم ضرباً موجعاً . وكان بنو بويه اول من احدث مثل هذه المناحة والمناديب في عاشوراء في فجر القرن الرابع للهجرة . ويبلغ عدد الزوار الذين يتبركون كل سنة بالحج الى كربلاء نحو مئة الف زائر

وكربلاء الحالية من امهات مدن العراق يقدر سكانها بنحو خمسين الف نفس اغلبهم مسلمون شيعيون وبينهم قليلون من اليهود . وفي نواحي المدينة نهر الحسينية وهو فرع من الفرات كراه السلطان سليمان القانوني الا ان ماءه ينضب في فصل الصيف فيحفر الاهالي الآبار لشربهم . وفي المدينة دار الحكومة وهي طابق واحد على طراز اوربي حديث وفيها دار البلدية والبريد والتلغراف والديون العمومية وأثر اقيم في وسط ميدان فسيح تخليداً لذكر نشر القانون الاساسي في البلاد . واسواقها حفيلة وتجارتها رائجة وصناعاتها ناجحة لاسيما صناعة الحفر والنقش والنحاس وفيها اشجار النخيل والرمان والبرتقال والليمون

والعنب والمشمش والتين والتوت وتزرع في سهولها الحبوب على انواعها . ويقسم سنجق كربلاء الى ثلاثة اقسام ألوية كربلاء ولواء الهندية ولواء النجف وفي هذه الالوية الثلاثة من المدن القديمة والآثار الشهيرة ما يعجز القلم عن وصفهِ ويكفيها فخراً ان فيها الكوفة والنجف والسدير والخورنق ناهيك عن آثار الكنائس والاديرة والمعابد المشهورة في العبر (١) في الزمان الغابر . وفي كربلاء كان وكلاء قناصل للانكليز والروس وايران . وقد شاهدنا عند وكيل قنصلية انكلترا مكتبة حافلة بالمخطوطات

نجعل مسك الختام لمقالتنا وصف ثلاثة معاهده زرنا ظاهرها ولم يؤذن لنا في زيارة داخلها وانما نعتمد في وصف داخلها على احد اصدقائنا الخاص من ابناء الشيعة وعلى ما كتب عنها غيره . اولها : جامع الخيمكاه وهي كلة فارسية (٢) معناها المخيم وهو واقع في غربي المدينة وفيهِ ضرب الحسين اطناب خيامهِ ونصبت اعمدتها يوم نزل سهل كربلاء يخطب ودّ العراقيين ليبايعوهُ الخلافة . وقد بنى هناك اهل التقى جامعاً لطيفاً واقاموا في داخلهِ اعلاماً مشيدة بالآجر ومطلاة بالكلس الناصع البياض تمثل خيام الحسين : وان ما يعجب من هذا البناء بابهُ المحفور حفراً لطيفاً على خشب فاخر . وحول الباب وفوقهُ نقوش بديعة زاهية من القاشاني ومنها كتابات من آيات القرآن

٢ جامع الحسين وهو اكبر معهد ديني في كربلاء وربما كان من عداد المعاهد الدينية الكبرى في العراق سرّاً . هناك مصرع الامام وهناك رفات رئيس شهداء الشيعة . وقد لاق هذا المشهد على مرّ الايام من الجور والعز ما لا يفصح بهِ لسان وتقلّب بين دفتي السعد والشقاء بتقلب السياسة والاحكام . تارةً تصول عليهِ يدُ الحكام فتمحي آثارهُ وتكرب ارضهُ (٣) وتارةً تحمي ذمارهُ ويذود عن عقر دارهِ فتشادُ الاسوار شاهقات حولهُ ويجود اهل التقى بالاصفر الرنان والابيض

(١) العبر : ما أخذ على غربي الفرات من برية العرب (٢) ان اللغة الفارسية كثيرة الشيوع في كربلاء لكثرة الزوار الذين يأتون اليها من ايران وان سرت لي طرقها خيل لك انك في مدينة فارسية ولست في بلاد عربية

(٣) راجع تاريخ ابن الاثير جزء ١٠ ص ١٠٠ وتاريخ ابي الفداء جزء ٢ ص ٣٨

القتان ويقدحون زناد الفكرة ليزينوهُ بنتائج الصناعات . فابوابهُ جميلة كبيرة يحيط بها القاشاني الفاخر يسرّ الخاطر ويبهج الناظر . وألوان القاشاني تمثل الازهار المختلفة وبينها آيات الكتاب . وللمسجد دار قوراء مبلطة بالرخام اللطيف . وصحنهُ آية من آيات الصناعة فان حيطانهُ مغشاة بالآجر المطلي بالقاشاني الملون وفي اطراف الابواب سهوات على هيئة محاريب مرصعة بقطع من المرائي . والابواب مقوّسة اقواساً تكاد تنطبق على نفسها انطباقاً وكلها مخرمة ومحاريبها من الآجر المنحوت والمقطّع قطعاً مختلفة الكبر ويدعم البناء الذي يطوف بالحرم اعمدة من الخشب عليها نقوش نائتة وفي اقصى الحرم مصطبة نفيسة تحتها رمم الامام وهي عجيبة الحفر والصنع والتلوين ترى من وراء مشبك من الفضة ذي اربعة اركان يتفرع من وسط الجانب الشرقي منهُ مشبك صغير من الفضة ايضاً على ضريح ابنهِ علي الاكبر الذي قتل معهُ وفي اعلى مشبك الحسين ستة عشر من الآنية المستطيلة الشكل كلها من الذهب وفي كل ركنٍ من المشبكين رمانة من الذهب الابريز ايضاً يبلغ طولها قراب نصف متر . وسقف الحرم مغشى بقطع من المرائي . وعلى ضريح الامام غطاء بديع الصنع وهو بساط من الخز ما حاكتهُ ايدي الفرس . وفي الزاوية الجنوبية من حرم الحسين ضريح كبير يلحود فيهِ اصحاب الحسين الذين قتلوا معهُ في واقعة كربلاء وعلى وجه تلك الزاوية مشبك من الفضة الناصعة فيهِ اربعة شبابيك

وفي جامع الحسين ثلاث مآذن وقبتان كلها مغشاة بغلالة من الذهب الابريز وفيهِ ساعتان كبيرتان كل منهما في برج شاهق . وكانت تغشية قبة حرم الحسين في سنة ١٢٧٣ هجرية على نفقة ناصر الدين شاه

٣ جامع العباس : يشبه هذا المعهد في مجموعهِ جامع الحسين الذي مرّ بنا وصفهُ ولا يختلف الاّ في بعض مفرداتهِ . وطراز البناء والتزيين واحد

بغداد ي . ر . غنيمة